الباب الثالث

آراء ابن حزم فى الفصل: عرض ودراسة

الفصل الأول: ابن حزم والنبوات.

الفصل الثانى: ابن حزم واليهودية.

الفصل الثالث: ابن حزم والنصرانية.

الفصل الرابع: الصابئة.

الفصل الخامس: ابن حزم والفلاسفة.

الفصل الأول
ابن حزم.. والنبوات

تحدث ابن حزم فى كتابــه «الفصل» عن «النبوّة» فى جوانبها المتعددة من حيث ثبوتهــا وبراهينها، والردّ على المنكرين لها، مبينا الفرق بين المعجزة وغيرها من أعمال الســحر، وحيل العجائبيين، وسوف نلقى مزيدًا من الضوء على تلك المباحث فيما يلى:

أولا: منكرو النبوات:

يقرر ابن حزم أن البراهمة قالوا بإنكار النبوات، وهم «قبيلة بالهند فيهم أشراف أهل الهنــد، ويقولون إنهم من ولد «بُرْهُم» ملك مــن ملوكهم، ولهم علامة ينفردون بها، وهى خيوط ملوّنة بحمرة وصفرة يتقلدونها تقلد السيوف[1]»

ولا ريب أنه لا صحة لما يقوله المؤلف من أن البراهمة تنسب إلى ولد «برهم» – ملك من ملوكهم – إذ إن الديانة البرهمية منســوبة للإله براهما Brahma وهو عند معتنقى هذه الديانة اسم للإله الخالق[2].

وقد وقع «الشهرستانى» فى نفس الخطأ عندما قال: «وهؤلاء البراهمة إنما انتسبوا إلى رجل يقال له «براهم[3]».

وقد ذهب أحد[4] الباحثين إلى أن البراهمة لا تنكر النبوات، واســتدل على ذلك بدليلين:

أحدهمــا: أن أبا محمد النوبختى عرض لنا فــى كتابه «الآراء والديانات» مذهب البراهمــة فيمــا يرويه ابن الجوزى فقــال: (إن قوما من الهند مــن البراهمة أثبتوا

(١) الفصل ١ / ٦٩.
(٢) على وافى: الأسفار المقدسة ١٥١.
(٣) الملل والنحل ٢ / ٣٧٠
(٤) عمار الطالبى فى كتابه عن آراء أبى بكر بن العربى.

الخالق، والرسل والجنة والنار، وزعموا أن رسولهم ملك أتاهم فى صورة البشر، من غير كتاب... وأمرهم أن يعبدوا البقر[1].)

ثانيهما: البيرونى الذى يعتبر حجة فى ديانات أهل الهند وعقائدهم، تحدث فى كتابه المشهور: "تحقيق ما للهند من مقوله، مقبولة فى العقل أو مرذولة" عن أنبياء البراهمة ورسلهم[2].

ومما يؤكد هذا الرأى أن القاسم بن إبراهيم – من علماء الزيدية – فى كتابه: «الرد على الرافضة» يعتبر أن مذهب البراهمة شبيه بمذهب الرافضة فى قولهم بالأوصياء، والأوصياء هم الأئمة الذين تنتقل الإمامة فيهم من الأب إلى الابن بالوصية، وهذا عند كثير من فرق الشيعة، خلافا للزيدية، يقول القاسم: (ص ١١٢ ظ): «وما قالت به الرافضة فى الأوصياء من هذه المقالة فهو قول فرقة كافرة من أهل الهند يقال لهم البرهمية، تزعم أنها بإمامة آدم من كل رسول وهدى مكتفية وأن من ادعى بعده نبوة أو رسالة فقد ادعى دعوى كاذبة ضالة، وأنه أوصى بنبوته إلى شيت وأن شيثًا أوصى إلى وصىّ من ولده، ثم يقودون وصيته بالأوصياء إليهم ولا أدرى لعلهم يزعمون أن وصيته اليوم فيهم» وهذا البيان لمذهب البراهمة من أنهم يعتقدون بنبوة آدم يطابق ما يحكيه سعيد الفيومى (الأمانات والاعتقادات ص ١٣٩) ويطابق – ما أورده القاسم – أيضا – فى رسالة له عنوانها: «الرد على الروافض من أصحاب الغلو» إذ يقول: «وأول من أجاز الوصية وادعى علم آدم قوم يقال لهم الإبراهيمية وجعلوا الوصية وراثة عن أب فأب وهم من الهند يقال لهم الإبراهيمية وهم سادات البلاد، وزعموا أن آدم أوصى إلى شيت وشيت أوصى إلى ابنه، وقادوا الوصية إلى أنفسهم، وزعموا أن الوصية فيهم اليوم، وزعموا أن كل نبى ادعى النبوة بعد شيث مدع كاذب لا يخبرنا بعلم آدم، وقالوا إن الله علم آدم الأسماء والعلم كله... ثم ادعوا بأن العلم الذى نزل من السماء فيهم كامل وأبطلوا كل نبى بعثه الله من ولد آدم"[3].

(١) عبد الرحمن بدوى، من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ١٣٨ – ١٣٩ نقلا عن آراء أبى بكر بن العربى ١ / ٢٦٩.

(٢) آراء أبى بكر بن العربى ١ / ٢٦٩.

(٣) انظر: بينيس، مذهب الذرة عند المسلمين ١١٩ – ١٢٠ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة (مكتبة النهضة ١٣٦٥هـ).

وبناء على هذا الرأى يكون ابن حزم قد أخطأ فى نسبة إنكار النبوة إلى البراهمة كغيره من المؤرخين المسلمين فى شتى مؤلفاتهم، كالباقلانى، والبغدادى، والشهرستانى[1].

ويذكر ابن حزم أن البراهمة يستدلون على إنكار النبوة بقولهم:

(أ) إن بعثة الرسل تتنافى مع الحكمة.. لأن الحكيم لا يبعث رسولا إلى قوم يعلم أنهم يعصونه، ويصدّون عن دعوته[2]..

ويرد ابن حزم هذه الشبهة، لأن البراهمة يقرون أن الله - تبارك وتعالى - خلق أناسا أعرضوا عن الإيمان، وكفروا بوحدانيته ودلائل قدرته، فليقولوا - إذن -: ليس حكيما من خلق دلائل لمن يدرى أنه لا يستدل بها، فإن قالوا: قد استدل بها كثير، قيل لهم: وقد صدق الرسل - أيضا - كثير، فإن قالوا: إنه خلق الخلق كما شاء، قيل لهم: وكذلك بعث الرسل - أيضا - كما شاء، فبعثته - تعالى - الرسل هى بعض دلائله التى خلقها الله - تعالى - ليدلّ بها على المعرفة به تعالى - وعلى توحيده[3]..

(ب) ومن حجج البراهمة - أيضا - قولهم:

"إن كان - الله تعالى - إنما بعث الرسل إلى الناس ليخرجهم بهم من الضلال إلى الإيمان، فقد كان أولى به فى حكمته وأتم لمراده أن يضطر العقول إلى الإيمان به"[4].

ويرد ابن حزم على هذه الشبهة فيقول:

أنتم تقولون: إن الله خلق الخلق ليدلهم بهم نفسه ووحدانيته، أليس الأَولَى - على ذلك الأصل الفاسد - أن يضطر العقول إلى الإيمان به، ولا يكلفهم مؤنة

---

(١) يقول عمار الطلبى: :وقد تفضل أستاذنا الدكتور عبد الحليم محمود فنبهنى فى مناقشته لرسالتى فى الماجستير إلى هذه النقطة التى كنت متبعا فيها لآراء المؤرخين المسلمين الذين أرخوا للمذاهب والملل والنحل (انظر: آراه أبى بكر بن العربى ١ / ٢٦٩).

(٢) انظر: الفصل ١/ ٦٩.

(٣) الفصل ١ / ٦٩ - ٧٠.

(٤) الفصل ١ / ٧٠.

الاستدلال، وأن يلطف بهم ألطافا يختار جميعهم معها الإيمان كما فعل بالملائكة، خصوصا وأن فيهم من لا يستدل، أو من يغمض عليه الاستدلال؟ كما أن الله - سبحانه - يأتي فعلـه لا لعلة بخلاف جميع خلقـه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (سورة: ألانبياء).

ونضيـف إلى ما ذكره ابن حـزم في الرد على هذه الشـبهة: أن اضطرار العقول يفـوت كثيرا من أغراض الشـارع فيما جاء به الشـرع، ويلغي حكمـة التفاوت بين الناس، ومهما يكن من أمر، فلو ألهم الإنسـان حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هـو ذلك النوع بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل، أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض[1].

وقد أورد الذين أرخوا للعقائد والأديان شبها أخرى نسبت لطائفة البراهمة - غير التـي ذكرها ابن حزم - من هذه: الشـبه التي نعتقد أنها أقـوى ما أوردوه في هذا الباب: استغناؤهم بالعقول عن الأنبياء، ونترك الشهرستاني يصور لنا تلك الشبهة فيقـول: «إن الذي يأتي به الرسـول لم يخل من أحد أمرين: إمـا أن يكون معقولا، وإمـا أن لا يكـون معقولا: فإن كان معقولا، فقد كفانا العقـل التام بإدراكه والوصول إليه: فأي حاجة لنا إلى «الرسول»؟

وإن لـم يكن معقولا، فلا يكون مقبولا، إذ قبول مـا ليس بمعقول خروج عن حد الإنسانية، ودخول في حريم البهيمية[2].

ولا ريـب أن عقل الإنسـان وحده غيـر كافي لتحقيق سـعادة الإنسـان الدينية والدنيوية، وأن أمر الإنسـان لا يسـتقيم إلا إذا انتهى إلى إنسـان مؤيد من السـماء متصـل بهـا، بدليل ما نراه من اختلاف العقول وتفاوتهـا، على أن الناس لو تركوا والاحتكام إلى عقولهم لوقع بينهم تنافس أفسـد عليهم حياتهم.. كذلك ليس ثمة ما يمنع أن تأتي الرسل ببعض ما جاءت به العقول على سبيل وجوب ما جوزه العقل أو

(١) عبد الفتاح الفاوي: النبوة بين الفلسفة والتصوف ٧٠.
(٢) الملل والنحل ٢ / ١٢٧١.

تأكيد ما أوجبه ويكون ذلك بمثابة ترادف أدلة العقول، كما أنه عند اختلاف قضايا العقول، وتكافؤ الأدلة تأتى الرسل بما يحسم هذا الخلاف[1].

ثم إن ما تأتى به العقول قد يكون كليا فتأتى الرسل بتفصيله، وإذا ساغ لنا أن نستعير لسان المعتزلة قلنا: إن بعثة الأنبياء لطف من الله عندئذ، وفى ذلك يقول إخوان الصفا: "فلو أنهم علموا بأن الله - ﷻ - إنما جعل العقل مقدمة أمام الرسالة، وجعل الوحى والرسالة أيضا مقدمة أمام البعث والقيامة، وجعل البعث والقيامة أيضا مقدمة للغاية لما قالوا بأن فى موجبات العقل كفاية للإنسان عن الوصايا التى جاءت فى الرسالة على ألسنة الأنبياء من الأمر والنهى والأحكام والحدود، أتُرى بأى عقل كان يمكن أن يعلم بأن الإنسان يبعث بعد الموت"[2] ومما هو جدير بالذكر أن طائفة البراهمة - التى ذكرها ابن حزم - ليست وحدها التى عرفت بنكران النبوة بين مؤرخى العقائد، وإنما يشار إلى طوائف أخرى أهمها الصابئة، والدهرية، والسمنية[3]، كما يشار فى الإسلام إلى بعض أفراد تولوا كبر هذا الأمر مثل ابن الراوندى، وأبى زكريا الرازى[4].

ومما يروى فى إنكار الرازى للنبوة أنه كتب كتابين يهاجم فيهما النبوة ويسخر من الأنبياء، وهما "مخاريق الأنبياء أو حيل المتنبئين" و"نقض الأديان أو فى النبوات" وقد صادف الكتاب الأول نجاحا لدى بعض الطوائف التى انتشرت فيها الزندقة والإلحاد، وبخاصة لدى القرامطة، ويذهب الأستاذ "ماسنيون" إلى أن أثره

---

(١) النبوة بين الفلسفة والتصوف ٦٩.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) يذكر إبراهيم مدكور: أن السمنية ينادون بتناسخ الأرواح، وينكرون النبوة والأنبياء، ولا يرون حاجة البشر إليهم (انظر منهج وتطبيقه ١ / ٨٣) وقد وافقه على ذلك عبد الفتاح الفاوى فى رسالته عن النبوة (ص ٦٧) بيد أننا نجد ابن النديم يقول: إنه قرأ بخط رجل من أهل خراسان، أن نبى السمنية "بوداسف" ومعنى السمنية منسوب إلى سمنى، وهم أسخى أهل الأرض والأديان وذلك أن نبيهم "بوداسف" أعلمهم أن أعظم الامور التى لا تحل ولا يسع الإنسان أن يعتقدها ولا يفعلها قول: لا فى الأمور كلها، فهم على ذلك قولا وفعلا، وقول لا عندهم من فعل الشيطان، ومذهبهم دفع الشيطان .(الفهرست ٤٨٤).

(٤) انظر: - مثلا - إبراهيم مدكور، منهج وتطبيقه ١ / ٨٤.

امتـد إلى الغرب، وكان منبع تلك الاعتراضات التـى وجهها عقليو أوربا إلى الدين والنبوة فى عهد "فردريك الثانى"[1].

أمـا الكتـاب الثانى فقد وصل إلينا منـه فقرات عن طريق غير مباشـر فى كتاب "أعلام النبوة" لأبـى حاتم الرازى (ت ٣٣٠هـ) والـذى كان معاصراومواطنا للرازى الطبيب، ودارت بينهما مناقشـات حادة ومتعددة حضرها بعض العلماء والرؤسـاء السياسيين[2].

ويذكر أبو حاتم أن الرازى يقول: «الأَولَى بحكمة الحكيم ورحمة الرحيم أن يلهم عباده أجمعين معرفة منافعهم ومضارهم فى عاجلهم وآجلهم ولا يفضل بعضهم على بعـض فلا يكون بينهـم تنازع ولا اختلاف فيهلكوا. وذلـك أحوط لهم من أن يجعل بعضهم أئمة لبعض فتصدق كل فرقة إمامها وتكذب غيره، ويضرب بعضهم بالسيف ويعم البلاء ويهلكوا بالتعادى والمجاذبات وقد هلك بذلك كثير من الناس»[3].

كمـا يصرح الـرازى بأن الأنبياء لا حقّ لهم فى أن يدعوا لأنفسـهم ميزة خاصة، عقليـة كانت أو روحية فإن الناس كلهم سواسـية، وعـدل الله وحكمته تقتضى بألا يمتاز واحد على آخر"[4].

وقد حاول بعض الباحثين أن يبرئ ساحة الرازى من إنكار النبوة، وأن يدافع عن عقيدته فى الأنبياء.

مـن هؤلاء «ابن أبى أصيبعة» الذى أنكر صحة نسـبة كتـاب «مخاريق الأنبياء» إليه، إذ يقول: «هذا الكتاب - إن كان قد ألّف - الله أعلم - فربما إن بعض الأشـرار المعادين للرازى قد ألفه ونسـبه إليه، ليسـىء من يرى ذلك الكتاب، أو سمع به - الظن بالرازى، وإلا فالرازى أجلّ من أن يحاول هذا الأمر[5]».

---

(١) إبراهيم مدكور: فى الفلسفة الإسلامية، منهج وتطبيقه ١ / ٨٩.

(٢) المرجع السابق ١ / ٩٠.

(٣) أبو حاتم: أعلام النبوة ٣٨ نقلا عن المرجع السابق ١ / ٩١.

(٤) عبد اللطيف العبد: أصول الفكر الفلسفى عند الرازى ١٣٣.

(٥) عيون الأنْبَاء ٤٢٦.

كما أورد أحد الباحثين فى رسالته عن أصول فلسفة الرازى بعض عبارات تفيد احترامه للنبوة، من الصلاة والسلام على الرسول – ﷺ – مثل قوله:

"صلى الله على خير خلقه، محمد النبى وآله[1]" ومثل: "صلى الله على سيدنا وحبيبنا وشفيعنا، يوم القيامة، محمد ﷺ تسليما كثيرا، أبدا[2]" وهو أيضا لا ينكر الأديان، ولا سيما فى جانبها الأخلاقى، حيث يقول:

(ذم الهوى، وردعه، واجب فى كل رأى، وعند كل عاقل، وفى كل دين[3]).

والرازى يحذر الإنسان من السُكر، لأنه يقعد المرء عن إدراك جعل المطالب الدينية، وفيه انحطاط لبنى الإنسان[4].

وإن من يهتم بالجانب الروحى فى الإنسان هكذا، لا يمكن أن يكون ملحدا، وكيف يسوغ لعاقل أن يقول إن الرازى يؤمن بالشرع، وينكر النبوة والأنبياء؟ فمن الذى أتى بالشرع من عند الله وحيا، إلا الرسل والأنبياء[5]؟؟.

* * *

ويستدل ابن حزم على إثبات النبوة وحاجة البشر إلى رسالات الله ووحيه – بتلك الصناعات والعلوم التى يستبعد أن يهتدى أحد إليها بطبعه فيما بيننا دون تعليم – أى وحى من الله – كالطب، ومعرفة الأمراض وأسبابها، والعقاقير، وكيفية العلاج بها، وإن تجريب كل عقار لكل علة ليحتاج إلى عشرة آلاف من السنين، وأنَّى للإنسان أن يشاهد كل مريض فى العالم، ليجرب كل عقار فى كل علة، ومتى يتهيّأ ذلك، وهذا يقطع دونه قواطع الموت والشغل بما لابد منه فى أمر المعاش، وكاللغة التى لا يتيسر العيش للمرء بدونها ولا سبيل إلى الاتفاق عليها وتحديد مصطلحاتها إلّا بلغة أخرى، فصح أنه لابد من مبدأ ما للغة..

(١) سر الأسرار ١١٨ نقلا عن أصول الفكر ١٤٢.

(٢) برء الساعة ١٣، المرجع السابق ١٤٢.

(٣) الطب الروحى ٤٨ – ٤٩ تحقيق عبد اللطيف العبد.

(٤) السابق ٩٤.

(٥) أصول الفكر الفلسفى ١٤١.

وكذلك كل ما يحتاج إليه الإنسان فى معاشه من حرث، وحصاد، وعجن، وطبخ، واستخراج الأدهان، ودقّ الكّتان، وغزل القطن وحياكته، وآلات كل ذلك، وحفر الآبار، وتربية النحل، ودود الخز، واستخراج المعادن، وعمل الآنية منها، ومن الخشب والفخار، وكل هذا لا سبيل إلى الاهتداء إليه دون تعليم.. فوجب بالضرورة ولابد أنه لابد من إنسان واحد فأكثر علمهم الله تعالى ابتداء كل هذا دون معلم لكن بوحى حققه عنده، وهذه صفة النبوة[1].

ومما يدل على أن رسل الله وأنبياءه هم الذين علموا البشر أصول المعارف وأوائل الصناعات أننا نجد من لم يشاهد هذه الأمور لا يستطيع اختراعها، كالذى يولد وهو أصم فإنه لا يمكنه الاهتداء إلى الكلام ولا إلى مخارج الحروف، وكالبلاد التى ليست فيها بعض الصناعات والعلوم، لا سبيل إلى اهتداء أحد منهم إلى علم لم يعرفه، ولا إلى صناعة لم يعرف بها، فلا سبيل إلى تهديهم إليها البتة حتى يعلموها.. فصح بذلك أنه لابد من وحى من الله تعالى فى كل ذلك[2].

ثانيا: براهين النبوة:

ويقرر ابن حزم من براهين النبوة ودلائلها إحالة الطبائع المخالفة لما بُنِى عليه العالم، ووجود أشياء كانت فى حكم الممتنع، وذلك كعصا موسى التى انقلبت حية، وناقة صالح التى انفلقت عن صخرة، وإحياء عيسى للموتى، ومئات الناس الذين رووا وتوضئوا من قدح يسير معجزة لمحمد - ﷺ - مما جعلنا نعلم - يقينا - أن صانع هذه المعجزات ومحيل تلك الطبائع عن خصائصها هو الله - سبحانه - تصديقا لأنبيائه ورسله[3]..

ولا فرق عن المؤلف بين مشاهدة المعجزة وتناقلها عن طريق التواتر فى الدلالة على صحة النبوة وصدق مدعيها، لأن نقل الكافة لها يمنع من جواز الكذب فيها..

(١) الفصل ١ / ٧٢.
(٢) نفس الموضع.
(٣) الفصل ١ / ٧٣.

ومن ثم فمن يتجاهل معجزة لم يشاهدها وأنكرها، خرج - كما يقول المؤلف - عن كل معقول، ولزمه أن لا يصدق أن من غاب عن بصره من الإنس بأنهم أحياء ناطقون كمن شاهد، وأن صورهم على حسب الصور التى عاين.. إذ لا يعرف أحد أن كل من غاب عن حسه فإنه فى مثل كيفية ما شاعد من نوعه إلا بنقل الكوافّ - التواتر - فوجب تصديق ذلك ضرورة كبلاد السودان وما أشبه ذلك[1].

* * *

ويرى ابن حزم أن الله - سبحانه - لا يظهر معجزة إلا على يدى الأنبياء تصديقا لرسالتهم، وتأييدا لهم.. أما الفسقة والكذابون فلا تظهر على أيديهم خارقة، ولا يمكنهم أن يحيوا طبيعة أو يقلبوا عينا، إذ إن فى ظهور المعجزات والخوارق على أيديهم فيه تلبيس فى الدين، والله - سبحانه - وعد عبادة أن يبين لهم الرشد من الغىّ.

يقول ابن حزم: «حاشا لله أن يظهر آية على يد من يمكن أن يكذب أو يأمر بباطل[2]» ويقول أيضا: «والمعجزات لا يأتى بها أحد إلا الأنبياء - عليهم السلام[3]-» وعند حديثه عن المعجزات نراه يقرر «أنه لا يقلب أحد عينا، ولا يحيل طبيعة إلا الله - عز وجل - لأنبيائه فقط.. وأنه لا يمكن وجود شىء من ذلك لصالح ولا لساحر ولا لأحد غير الأنبياء - عليهم السلام[4]».

وإذا كان الله - سبحانه - لا يظهر آية على يد كاذب من الناس، فإن هذا لا يعنى - عند ابن حزم - أن نصف المولى - عز وجل - بالعجز عن ذلك، لأن وصف الله بتلك الصفة تتنافى مع ما يجب للبارى من أسماء الجلال والكبرياء والقدرة.. ولذلك ينبه ابن حزم على «أن الله تعالى قادر على إظهار الآيات على أيدى الكذابين المدعين

(١) الفصل ١ / ٧٤.
(٢) الفصل ١ / ١٨٤.
(٣) المحلى ١ / ٣٦.
(٤) الفصل ٥ / ٢.

للنبوة، لكنه تعالى لا يفعل، كما لا يفعل ما لا يريد أن يفعله من سائر ما هو قادر عليه[1]».

وقد عنف ابن حزم الباقلانى عندما قال عن الله – سبحانه – «إنه لا يقدر على إظهار آية على يد لسان متنبئ كاذب[2]» ورد عليه بقوله: «قول الباقلانى إن الله تعالى لا يقدر على إظهار آية على يد كذاب فهو داخل فى جملة تعجيزه البارى تعالى وهو أيضا تعجيز سخيف، داخل فى جملة المحال»[3].

وقد فهم أحد[4] الباحثين من هذا النص جواز ظهور المعجزة على يد الكاذب عن ابن حزم، وقال بالحرف الواحد: «ويرى ابن حزم جواز ظهور المعجزة على يد كاذب، لأن منعها يؤدى إلى تعجيز الرب – وهو كما يقول – تعجيز سخيف داخل فى جملة المحال، وإذا جوزنا ظهورها على يد الساحر فلنجوزها على يد الكاذب من غير تفريق»[5].

ونعتقد أن هذا فهم خاطئ، إذ إن النصوص التى أَثِرت عن ابن حزم تعنف من يعتقد ذلك وأو يقول به.. ومن ثم نراه يتحدث عن معجزات الأنبياء وثبوتها لهم بالمشاهدة أو بالتواتر الموجب للعلم، ثم يقول: «وبقى ما عدا الأنبياء – عليهم السلام – على الامتناع فلا يجوز البتة وجود ذلك لا من ساحر ولا من صالح بوجه من الوجوه، لأنه لم يقم برهان بوجود ذلك ولا يصح به نقل، وهو ممتنع فى العقل»[6].

ومما يزيد المسألة وضوحا أن المؤلف فى كتابه «الفَصْل» يورد ما جاء فى سفر الخروج (٧: ١٩) من أن هارون ألقى العصابين يدى فرعون وعبيد فصارت حية فدعا فرعون بالعلماء والسحرة وفعلوا مثل ذلك».

---

(١) الفصل ٥ / ٢.

(٢) الموضع السابق.

(٣) الفصل ٥ / ١١.

(٤) عبد الفتاح الفاوى فى رسالته عن النبوة بين الفلسفة والتصوف (رسالة دكتوراة بكلية دار العلوم).

(٥) المرجع السابق ٢٠٥ – ٢٠٦.

(٦) الفصل ٥ / ٣.

ويعلق ابن حزم – على قول التوراة – قائلا: «... لو صح هذا لبطلت نبوة موسى – عليه السلام – بل نبوة كل نبى، ولو قدر السحرة على شىء من جنس ما يأتى به النبى لكان باب السحرة وباب مدعى النبوة واحدا، ولما انتفع موسى بازدراد عصاه لعصيهم... ولما كان لموسى عليهم بنبوته أكثر من أنه أعلم بذلك العمل منهم فقط، ولكان فرعون صادقا ق قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾[1] (سورة الشعراء: ٤٩).

وعبارة الباحث التى أوردها ونسبها إلى ابن حزم: «... وإذا جوزنا ظهورها على يد الساحر فلنجوزها على يد الكاذب من غير تفريق» نعتقد أنها ليست من كلام ابن حزم، وكنا نود أن نعرف مصدرها، لو كان لها مصدر؟!!.

وعجيب أن يخفى على ابن حزم – وهو إمام جليل – الفرق بين السحر ومعجزات الرسل حتى يقول الباحث فى رسالته: "ونبادر فنقول لابن حزم إن المعجزة لم تظهر على يد الساحر، وما يفعله السحرة لن يبلغ مبلغ المعجزات، لأنه من باب التخييل واستهواء الأنظار[2]" وكيف عرف الباحث أن ابن حزم يقول بظهور المعجزة على يد الساحر؟ ألم يقرأ ما كتبه الرجل منذ أكثر من عشرة قرون عندما رفض تلك الشبهة، وكفر القائلين بها؟؟ استمع إليه – وكأنه يدافع عن نفسه – : «السحر حيل وتخييل لا يحيل طبيعة أصلا، قال الله – عز وجل – ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ فصح أنها تخييلات لا حقيقة لها، ولو أحال الساحر طبيعة لكان لا فرق بينه وبين النبى، وهذا كفر ممن أجازه[3]».

ونعتقد أن فى النصوص التى نقلناها عن ابن حزم تبرئه للرجل مما نسب إليه..

* * *

ولكن إذا كان ابن حزم يمنع ظهور المعجزة إلا للأنبياء – كما بينا – فما هو الفرق إذن بين المعجزة وغيرها من السحر وألوان الحيل، وكيف يمكن للمرء أن يفرق بينهما؟؟.

---

(١) الفصل ١ / ١٥٤.

(٢) النبوة بين الفلسفة والتصوف ٢٠٦.

(٣) المحلى ١ / ٣٦ – ٣٧.

يحـدد المؤلف معجزات الأنبيـاء التى تخص بهم ولا يقـدر عليها غيرهم فيما يأتى:

(أ) اختراع الجواهر من العدم إلى الوجود:

وذلك كالماء النابع من أصابع رسول الله - ﷺ - بحضرة الجيش[1].

(ب)قلب الأعيان، وإحالة الطبائع:

وذلـك كقلب العصـا الحية وحنين الجـذع، وإحياء الموتى الذيـن رموا وصاروا عظاما، والبقاء فى النار ساعات لا تؤذيه وما أشبه ذلك[2].

(جـ) إحالة الأعراض التى لا تزول إلا بفساد حاملها:

وذلك كالفطس والقصر والزرق وسـواد الزنجى ونحو ذلك فهذا لا يقدر عليه أحد دون الله - تعالى - بوجه من الوجوه[3].

(د) إحالة الذاتيات:

ومن ذلك صرف الحواس عن طبائعها كمن أراك ما لا يراه غيرك، أو مسح يده على مريض فأفاق، أو سـقاه ما يضر علته فبـرئ، أو أخبر عن الغيوب فى الجزئيات عن غير تعديل ولا فكرة، فهذه كلها إحالة الذاتيات... ولا تكون إلا لنبى[4]..

أما الأعمال التى يستطيعها غير الأنبياء من السحرة وأرباب الحيل، فمنها:

(أ) الطلسمات:

كتنفيـر بعـض الحيوانات عـن مكان ما فلا يقربـه أصلا وكإبعـاد البرد ببعض الصناعات وما أشبه ذلك..

---

(١) الفصل ١ / ٧٦.

(٢) الفصل ١ / ٧٦.

(٣) الفصل ١ / ٧٦ وانظر - أيضا - ٥ / ١٦.

(٤) الفصل ١ / ٧٦ - ٧٧.

ويقول ابن حزم عن الطلسمات: «ليس إحالة طبيعة ولا قلب عين ولكنها قوى ركبها الله - ﷻ - مدافعة لقوى آخر كدفع الحر بالبرد، ودفع البرد بالحر»[1].

ولا ينكر الطلسمات - في رأى ابن حزم - إلا معاند، لأنه شاهد بنفسه آثارها الظاهرة[2].

(ب) الرقى:

وهو كلام مجموع من حروف مقطعة في طوالع معروفة أيضا يحدث لذلك التركيب قوة تستثار بها الطبائع وتدافع قوى آخر، ويستدل ابن حزم على صحة الرقى بالمشاهدة، فيقول:

«وقد شاهدنا وجربنا من كان يرقى الدمّل الحاد القوى الظهور في أول ظهوره فييبس، يبدأ من يومه ذلك بالذبول ويتم يبسه في اليوم الثالث ويقلع كما تقلع القرحة إذا تم يبسها جربنا من ذلك ما لا نحصيه»[3].

(جـ) حيل العجائبيين:

وذلك كمن يضرب بسكينة في جسم إنسان فيظن من رآه ممن لا يدرى حيلته أن السكين غاصت في جسم المضروب، وليس كذلك بل كان نصاب السكين مثقوبا فقط فغاصت السكين في النصاب[4]، وغير ذلك من الحيل والعجائب التي يستطيعها كل من تعلمها..

ثالثا: نبوة النساء:

هل يمكن أن تكون في النساء نبوة؟ هذا ما وقع فيه الخلاف بقرطبة في عصر ابن حزم، فمنهم من منع ذلك وبدع من قال به.. مستدلا بقول الحق - سبحانه

(١) الفصل ٥ / ٤.
(٢) نفس الموضع.
(٣) الفصل ٥ / ٤.
(٤) الفصل ١ / ٧٦.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾ (سورة الأنبياء: ٧) ومنهم من أجازه مثل ابن حزم الذى يرى أن هذه الآية خاصة بالرسالة دون النبوة ويقول: «إنها مأخوذة من الإنباء والإعلام، فمن أعلمه الله - ﷻ - بما يكون قبل أن يكون أو أوحى إليه منبئا له بأمر ما فهو نبى بلا شك [1]» يفرق صاحبنا بين النبوة وبين غيرها من أنواع الإلهام، والكهانة، والرؤيا.. فيقول: ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ ﴾ (سورة النحل: ٦٨) والكهانة تكون من استراق الشياطين من السماء فيرمون بالشهب الثواقب، كما أن الكهانة انقطعت بمجيء رسول الله ﷺ والرؤيا كذلك لا يُستيقن بصدقها أو كذبها، وهذا كله بخلاف الوحى الذى هو «النبوة» فإنه قصد من الله تعالى إلى إعلام من يوحى إليه بما يعلمه به ويكون عند الوحى به إليه بما يعلمه به ويكون عند الوحى به إليه حقيقة خارجة عن الوجوه المذكورة، يحدث الله ﷻ لمن أوحى به إليه علما ضروريا بصحبة ما أوحى به كعلمه بما أدرك بحواسه وبديهة عقله سواء. لا مجال للشك فى شىء منه إما بمجيء الملك به إليه وإما بخطاب يخاطب به فى نفسه وهو تعليم من الله تعالى لمن يعلمة دون وساطة معلم[2]».

ويذكر ابن حزم نماذج للنساء اللاتى أوحى إليهنّ وشرفهنّ الله بالنبوة مثل «أمّ إسحاق» التى أرسل الله إليها ملائكة بشرتها بإسحاق فقال - ﷻ - ﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ ٧٣ ﴾ (سورة: هود) فهذا الخطاب من الملائكة لأم إسحاق لا يكون لغير نبى بوجة من الوجوه[3]

كما أن القرآن يقص علينا خبر «مريم» عليها السلام التى أرسل الله إليها جبريل - ﷺ - وخاطبها بقول ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ١٩ ﴾ (سورة: مريم) فهذا - عند ابن حزم - نبوة صحيحة بوحى صحيح ورسالة من

(١) الفصل ٥ / ١٧.
(٢) الفصل ٥ / ١٧.
(٣) الفصل ٥ / ١٨.

الله – تعالى– إليها، ومما يؤيد ثبوتها أن زكريا – عليه السلام – كان يجد عندها رزقا واردا من الله – سبحانه –:

وممن أوحى الله إليها بإلقاء ولدها فى اليم «أم موسى» وأعلمها – سبحانه – أنه سيردّه إليها ويجعله من المرسلين.. ولا ريب أن «أم موسى» لو لم تكن واثقة بنبوة الله – سبحانه – لها لكانت بإلقائها ولدها فى اليم برؤيا تراها أو بما يقع فى نفسها فى غاية الجنون «فصح يقينا أن الوحى الذى ورد لها فى إلقاء ولدها فى اليم، كالوحى الوارد على إبراهيم فى الرؤيا فى ذبح ولده، فإن إبراهيم – عليه السلام – لو لم يكن نبيا واثقا بصحة لوحى والنبوة.. لكان بلا شك فاعل ذلك من غير الأنبياء فاسقا فى نهاية الفسق أو مجنونا فى غاية الجنون.. فصحت نبوتهن بيقين[1]».

وليس وصف الله لمريم – عليها السلام – بأنها صديقة بمانع من أن تكون نبية، فقد قال الله – سبحانه – ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴾ (سورة يوسف: ٤٦) وهو مع ذلك نبى رسول.

ويستدل ابن حزم على نبوة امرأة فرعون بقول رسول الله ﷺ كمل من الرجال كثيره، ولم يكمل من النساء إلا مريم ابنة عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون[2] والكمال فى الرجال لا يكون إلا لبعض المرسلين – عليهم السلام – لأن من دونهم ناقص عنهم بلا شك، وكان تخصيصه ﷺ مريم وامرأة فرعون تفضيلا لهما على سائر من أوتيت النبوة من النساء بلا شك، إذ من نقص عن منزلة آخر ولو بدقيقة لم يكمل، فصح بها الخبر أن هاتين المرأتين كملتا كمالاً لم يلحقهما فيه امرأة غيرهما أصلا، وإن كن بنصوص القرآن نبيات[3].

---

(١) الموضع السابق.

(٢) رواه البخارى (٤/١٩٣، ٢٠٠) «باب ضرب الله مثلا للذين آمنوا» وورد أيضا فى (٥/٣٦) باب فضل عائشة رضى الله عنها.

(٣) الفصل ٥ / ١٨.

رابعا: الرد على من زعم أن فى البهائم رسلا:

وقد عنف «ابن حزم» أحمد بن حابط - الذى كان يظهر الاعتزال - وحكم بكفرة لأنه زعم أن الله - ﷻ - نبأ أنبياء من كل نوع من أنواع الحيوان حتى البقّ والبراغيث والقمل[1] ولقد أراد أن يستند فى زعمه هذا إلى قول الله - سبحانه - ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨) ثم ذكر قول الله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ (سورة: فاطر).

يوضح ابن حزم فساد هذا الاستدلال بأن الله - سبحانه - يخاطب الناس الذين منحهم نعمة العقل، وخصهم بفضيلة النطق: «الذى هو التصرف فى العلوم ومعرفة الأشياء على ما هى عليه[2]» فالله - تعالى لا يخاطب بالشرائع إلا من يعقلها ويعرف المراد بها، مصداقا لقوله: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٦).

ولا ريب أن الحيوان ليس لديه القدرة على فهم الشرائع، ومن ثم فهو غير مخاطب بها ويكون معنى قوله تعالى: ﴿ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨) أى أنواع أمثالكم إذ كل نوع يسمى أمّة، وأن معنى قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (سورة: فاطر) إنما عنى - تعالى - الأمم من الناس، وهم القبائل والطوائف[3] وليس فى قصة الهدهد التى وردت فى كتاب الله، ولا فى قول النملة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ (سورة النمل: ١٨) دليل على أن الحيوانات تعقل وتدرك، لأن قصة الهدهد والنملة معجزتان وآيتان لسليمان - عليه السلام - ككلام الذراع وحنين الجذع، وتسبيح الطعام لمحمد ﷺ آيات لنبوته عليه السلام[4].

(١) الفصل ١ / ٧٨.
(٢) الفصل ١ / ٧٩
(٣) الفصل ١ / ٧٩.
(٤) الفصل ١ / ٨١.